

(رسالة دكتوراه)

مقدمة لدراسة الآثار الإسلامية على أجزاء طرق الحج الشامية والمصرية الواقعة
في شمال غرب المملكة العربية السعودية

علي إبراهيم علي حامد غبان

جامعة بروفانس، أكس مرسيليا (١)، مركز أكس، ١٤٠٨هـ

***Introduction à l'étude Archeologique des Deux Routes
Syrienne et Egyptienne de Pelerinage Au Nord-Ouest de
l'Arabie Saoudite***

Ali Ibrahim A. Hamed

Université De Provence, Aix-Marseille I, Centre D'Aix, 1988

بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام ومصر أخذت قوافل الحجاج المسلمين تتجه كل عام من هذين البلدين إلى مكة المكرمة مخرقة الأجزاء الشمالية الغربية للجزيرة العربية. فكان حجاج الشام يسرون على الطريق التي عرفت باسم التبوكية لمرورها على تبوك؛ أما حجاج مصر ومن رافقهم من حجاج المغرب والأندلس فكانوا يعبرون شبه جزيرة سيناء ليصلوا إلى منطقة مدين ومنها كان لهم طريقان: طريق ساحلي يتجه إلى مكة مروراً بضبة والوجه والحوراء وينبع والجار، وطريق داخلي يتجه إلى المدينة مروراً بشغب وبدا وبمنطقة وادي القرى.

وقد نالت هذه الطرق اهتمام ورعاية الحكام المسلمين لمصر وبلاد الشام حيث حرصوا على تعميمها وتزويدها بالمنشآت التي تسهل حركة المسافرين عليها وتحفظ أمنهم فحفزوا العديد من الآبار وأنشأوا كثيراً من البرك وبنوا سلسلة من القلاع والأبراج في المحطات الرئيسية. إلا أن درجة اهتمام الحكام المسلمين بهذه الطرق كانت تختلف من عصر لآخر تبعاً للأوضاع السياسية والاقتصادية لمصر وسوريا والحجاز. ولهذا فإن دراسة أجزاء الطرق الشامية والمصرية الواقعة بالمملكة تشرى معرفتنا بتاريخ الحج الإسلامي وبتاريخ المناطق التي تسير عليها هذه الطرق في الجزيرة العربية ومن أجل ذلك وقع اختيارنا على هذا الموضوع لعمل دراستنا للدكتوراه.

وفي بداية الأمر كان يتوافر لدينا مصدران رئيسان للمعلومات عن هذا الموضوع هما: كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة الحجاج المسلمين، وكتابات الرحالة الأوربيين الذين ساروا على هذه الطرق في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وقد أردنا نحن إضافة مصدر ثالث للمعلومات ألا وهو: الآثار والبقايا المعمارية القائمة اليوم على مسارات هذه الطرق في شمال غرب المملكة. وتحقيقاً لذلك فقد قمنا، بمساعدة جامعة الملك سعود ممثلة بقسم الآثار والمتاحف، بزيارة ميدانية لمعظم مسارات طرق الحج الشامية والمصرية حيث سجلنا بالرسم والصورة الآثار الإسلامية والنقوش العربية الباقية عليها. كذلك نفذنا تسعة مجسات في ثلاثة مواقع أثرية هي: البدع والخوراء والجار وقد أمدتنا هذه المجسات بالعديد من الكسر الفخارية، ومكنتنا من قراءة الطبقات الأثرية في هذه المواقع. وبالإجمال فقد سمحت لنا هذه الأعمال الأثرية بالحصول على كمية كبيرة من المادة العلمية غير المنشورة في غالب الأحيان، ولذا فقد حرصنا على نشر أكثر ما نستطيع منها بغية إخراجها من عالم النسيان وتعريف الناس بها. ولهذا فقد وقع اختيارنا على جعل هذه الأطروحة دراسة عامة ولم نقصرها على عصر من العصور الإسلامية فجاءت مقدمة تناولت بالبحث جميع أنواع الآثار الإسلامية الموجودة على طرق الحج الشامية والمصرية لتعرف بهذه الآثار ولتفتح آفاقاً جديدة لدراسات أكثر تفصيلاً على كل نوع منها.

وتقع هذه الأطروحة في ثلاثة مجلدات : المجلدان الأول والثاني يحويان نصًا بمجموع ٧٢٣ صفحة والمجلد الثالث اشتمل على ٢٩٠ لوحة عبارة عن الصور والرسوم والخرائط المرافقة للنص . وتتكون هذه الأطروحة من خمسة أجزاء هي كالتالي :

الجزء الأول : وقد خصص لدراسة المراحل التاريخية المختلفة التي مرَّ بها تاريخ الطرق الشامية والمصرية وعمارتها ، إضافة إلى دراسة الآثار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لنشاطات هذه الطرق على المنطقة المارة بها في الجزيرة العربية . هذا وقد أمكننا تمييز أربع مراحل في تاريخ الطرق الشامية والمصرية وعمارتها هي :

المرحلة الأولى : وتمتد طوال الخمسة قرون الهجرية الأول ، أي خلال العصر الأموي والعصر العباسي والعصر الفاطمي ، وتميزت هذه المرحلة بنشاط الطرق وبازدهار الاستيطان وال عمران عليها فكانت معظم محطاتها في الجزيرة العربية مدناً عامرة ومأهولة شاركت مشاركة فعَّالة في الحركة التجارية والثقافية للمنطقة .

المرحلة الثانية : وتمثل فترة الوجود الصليبي بالمنطقة واتسمت بتوقف استخدام الطريقتين المصريين الساحلي والداخلي نتيجة احتلال الصليبيين لأيلة . كذلك اتسمت هذه المرحلة باضطراب حركة قوافل الحجاج على الطريق الشامي الرئيس وذلك نتيجة وجود الصليبيين في الكرك وهجماتهم المستمرة على قوافل الحجاج ، وبنهاية القرن السادس الهجري اختفت معظم المدن العامرة السابقة الوجود على الطرق خلال القرون الهجرية الأولى حيث هُجرت هذه المدن فتحولت إلى أطلال ثم إلى مواقع أثرية .

أما المرحلة الثالثة لتاريخ الطرق فتمتد طوال العصر المملوكي وفيها عاد الحجاج المصريون إلى استخدام الطريق الساحلي الذي يمر بالجزيرة العربية وتركوا استخدام طريق عيذاب وذلك ابتداء من عصر السلطان الظاهر بيبرس (٦٦٨هـ) ، كذلك نشطت خلال هذا العصر حركة قوافل الحجاج على الطريق الشامي وأقام المماليك كثيراً من المنشآت والعمائر على كلا الطريقتين إلا أن نصيب الطريق المصري الساحلي من ذلك كان أكثر من الطريق الشامي . أما الحالة الأمنية على هذين الطريقتين فلم تكن جيدة كما أن مستوى الاستيطان بين سكان الأجزاء الشمالية من الحجاز لم يعد كما كان في بداية العصور الإسلامية

إذ لم يكن على أجزاء الطرق الواقعة بشمال الحجاز طوال العصر المملوكي سوى بلديتين عامرتين هما: العلا على الطريق الشامي، وينبع على الطريق المصري.

أما المرحلة الرابعة لتاريخ هذه الطرق فإنها تمثل العصر العثماني وتتميز بتزايد الإنشاء والتعمير على مساري الطريقين الشامي والمصري الرئيسيين بحيث كان يوجد بنهاية هذا العصر بئر وبركة وقلعة في كل محطة من محطات الطريق الشامي وفي معظم محطات الطريق المصري الساحلي. إلا أن الحالة الأمنية على مساري هذين الطريقين لم تتحسن عما كانت عليه في العصر المملوكي. وبنهاية هذه المرحلة مدّت سكة حديد الحجاز على الطريق الشامي.

أما الجزء الثاني من الرسالة فقد تناول بالدراسة طبغرافية المسارات وتحقيق أسماء المحطات ونقاط المياه والمسافات بين المراحل في كل عصر من العصور الإسلامية وذلك اعتماداً على النصوص التاريخية وأعمال الجغرافيين المسلمين واعتماداً على ملاحظتنا الميدانية وعلى البقايا الأثرية والنقوش الكتابية الموجودة على الطرق. ويشكل كل من الجزأين الأول والثاني القسم النظري من هذه الأطروحة ولذلك فقد أفردناهما بمجلد مستقل هو المجلد الأول.

أما الأجزاء الثلاثة المتبقية فقد خصصناها لدراسة آثار الطرق وجعلناها في مجلد مستقل هو المجلد الثاني وذلك على الترتيب التالي:

الجزء الثالث وتناول وصف وتاريخ الآثار المعمارية والمواقع الأثرية الباقية على الطرق، وقد حرصنا في هذا العرض على أن نحفظ الصلة بين الأثر وموقعه الجغرافي، فعرضنا الآثار الموجودة في المحطات الواحدة تلو الأخرى من الشمال إلى الجنوب بحيث يستطيع القارئ أن يتصور من مجموع هذا العرض كامل الآثار الباقية الآن على كل طريق منذ دخوله إلى حدود المملكة وحتى وصوله إلى الأماكن المقدسة.

كما يشمل هذا الجزء أيضاً عرضاً للمجسات الأثرية التي نفذناها في ثلاثة مواقع ودراسة لنتائجها مقارنة مع النصوص التاريخية الواردة عن هذه المواقع. وقد أثبتت هذه

المجسات أن الآثار والمباني الظاهرة على سطوح مواقع الجار والحوراء والملقطة بالبدع^(١) ترجع إلى القرون الهجرية الخمسة الأولى وإنها بقايا لفترة الاستيطان الإسلامي في هذه المواقع . وهذه النتيجة لاتعارض مع وجود أدلة على استيطان سابق للإسلام في هذه المواقع ، ذلك أن هذه الأدلة الأثرية التقطت من السطح (عملات رومانية وكسر فخار سجلي ونبطي) ولم يثبت ارتباطها بآثار معمارية بالموقع وهي بذلك آتية من مكان ما بالموقع غير ظاهر المعالم على السطح أو من طبقات أثرية تحت المستوى الإسلامي .

الجزء الرابع ويتناول بالدراسة الفخار الإسلامي على الطرق والذي جمعناه بالالتقاط السطحي أو من المجسات الأثرية . ويرجع هذا الفخار في مجموعه إلى العصور الأموية والعباسية والفاطمية ؛ أما العصرين الأيوبي والمملوكي فلم نعثر بالمنطقة على أية فخار يرجع إليهما ، وبالنسبة للعصر العثماني فقد عثرنا على عدد كبير من كسر الفخار العائدة إلى أواخره . كذلك سجلنا نوعاً من الفخار المطلي من فترة السيطرة العباسية والفاطمية على المنطقة وقد اعتبرناه من الصناعة المحلية لأدلة كثيرة مفصلة في البحث وقد أسميناه بالفخار الحجازي . وتدل كثرة الفخار الإسلامي المبكر على الطرق بشمال المملكة وتعدد أنواعه واحتوائه على الأنواع الفاخرة من فخار ذلك العصر على نشاط التبادل التجاري بين الحجاز وسائر الأقاليم الإسلامية المجاورة له والبعيدة عنه ، بل ولقد عثرنا على أنواع عدة من خزف السيلادون الصيني الصنع والذي يؤرخ بعهد أسرتي تونغ وسونغ المعاصرتين للعصرين العباسي والفاطمي وقد كانت موانئ الحجاز كجدة والجار تستورد هذا الفخار مباشرة من الصين كما يمكن أن يفهم من النصوص التاريخية .

أما الجزء الخامس والأخير من الرسالة فقد تناولنا فيه بالدراسة الكتابات التأسيسية والتجديدية الموجودة على عمائر الطرق والنقوش الكوفية التذكارية التي تركها الحجاج والمسافرون على الأحجار البارزة على المسارات وفي المحطات . فبالنسبة للأحجار التأسيسية والتجديدية فإن مجموع ما وجدنا منها بلغ ٢٠ نقشاً، إثنان من العصر المملوكي والباقي من

(١) هناك عدد من المواقع الأثرية السابقة للإسلام تجاور الموقع الإسلامي بالبدع .

العصر العثماني، ولم نعثر على أي نقوش من هذا النوع ترجع إلى العصور الإسلامية المبكرة. أما بالنسبة للنقوش الكوفية التذكارية فقد اضطررنا، نظراً لكثرتها، إلى اختيار عدد محدود منها للدراسة المفصلة بلغ ٢٦ من أصل أكثر من ٥٠٠ نقش وقد حرصنا على أن يكون هذا الاختيار ممثلاً لكل العصور التي ترجع إليها هذه النقوش ومن أماكن مختلفة على الطرق. ويرجع معظم هذه النقوش التذكارية إلى العصر الأموي وبداية العصر العباسي والبعض منها يحمل أسماء شخصيات إسلامية شهيرة من التابعين ومن أبناء وأحفاد صحابة رسول الله ﷺ، مثل علي بن عبدالله بن عباس وعبدالرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ الأنصاري، وحازم بن يزيد مولى هند ابنة سهيل التي هي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها زوجة رسول الله ﷺ، والتابعي راوي الحديث أبو حرملة عبدالرحمن بن حرملة الأسلمي. وأقدم هذه النقوش مؤرخ بعام ٨٠هـ ومنها ما هو مؤرخ بعام ٨٣هـ، ٩١هـ، ١٥٤هـ، ١٦٠هـ و١٦٥هـ.

وختاماً فإننا نرجو أن تثري المعلومات الأثرية التي يقدمها هذا البحث معرفتنا عن الآثار الإسلامية بشمال غرب المملكة وأن تعين الباحثين في الدراسات المستقبلية المفصلة حول هذه الآثار؛ والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.